

سمات القصيدة الجاهلية أصالة

عمر عبد الهادي عمر ديان

قسم العلوم الإسلامية والعربية، كلية يافع الجامعية، جامعة لحج، اليمن

dayinyafi@gmail.com

تاريخ النشر
2026/09/10

تاريخ القبول
2026/03/29

تاريخ الاستلام
2025/10/04

<https://doi.org/10.67883/uljash.v2i1.90>

للاقتباس: ديان ، عمر عبد الهادي. (2026). سمات القصيدة الجاهلية أصالة". مجلة جامعة لحج للعلوم التطبيقية والإنسانية، 2(1)، 52-59.

ملخص

يهدف البحث إلى إبراز سمات القصيدة الجاهلية؛ التي لا يمكن تحديدها من خلال دراسة قصيدة واحدة، بل يكون ذلك بالرجوع إلى عدة شعراء، واستقراء قصائدهم، مستعينا بالمنهج التاريخي. وملخص سمات القصيدة الجاهلية التي وقفت عليها هو: سمة العناية بالمقدمة، سمة التحام أجزاء النظم، سمة صدق المشاعر والتعبير، سمة بساطة الأفكار، والمعاني، سمة غزارة المعنى، سمة الخيال الواسع، سمة فخامة اللفظ، وانسجابه في السياق.

ووصل البحث إلى نتائج؛ أهمها: امتلاك القصيدة الجاهلية أسرار البقاء والخلود والتأثير، وتم رفع الوهم القائل بعدم ترابط القصيدة الجاهلية مطلقاً، وإظهار الطاقة الكامنة لإحياءات القصيدة الجاهلية، دور القصيدة الجاهلية في إظهار صورة المجتمع، وإبراز أهمية الشعر الجاهلية في مد الساحة الأدبية بعناصر التميز والاستمرار.

وبهذا نعرف أن الشعر العربي الجاهلي تميز بنظام بديع تأتي له من خلال تجارب متنوعة، عاشها شعراء كثيرون على مر تاريخ طويل، فتهيأ للعربية خصائص شاعرية تناسبت مع وجدانيات أصحابها، ثم حظيت بالقبول والاحترام لدى اللاحقين.

واشتمل البحث على: مقدمة فيها: أسباب اختيار الموضوع، وأهمية البحث وأهدافه، ومنهجه، وتمهيد، وسبعة مطالب، وأهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: القصيدة الجاهلية، المقدمة الطلالية، سمات القصيدة.

©2026، ديان، عمر عبد الهادي، الجهة المرخص لها: مجلة جامعة لحج للعلوم التطبيقية والإنسانية.

نشرت هذه المقالة البحثية وفقاً لشروط (CC BY-NC 4.0 International) Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International.

تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. وتتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

مقدمة

1. أسباب اختيار الموضوع (مشكلة البحث)

اختلاف النقاد في وصف القصيدة الجاهلية من حيث التماسك الموضوعي واختلاله. وتناول القصيدة الجاهلية بسماتها الأصلية كقضية يجب الاحتفاء بها. وأهمية سمات القصيدة في دعم فهم سنن العرب في الكلام.

أهمية وأهداف البحث

تكمن أهمية هذا البحث في إبراز مظاهر تميز الشعر الجاهلي في حقبة بعيد زمنها، وقليلة وسائلها المفضية إلى ما حصل من تميز في الأداء الأدبي، والوقوف على نماذج عدة للتعريف بذلك وبيان، ومناقشة الآراء التي تتصادم مع بعض السمات التي سنتناولها بالتحليل إن شاء الله، مع بيان مواطن الحسن، وأسباب الجمال الشعري عند الجاهليين.

منهج البحث

المنهج التاريخي مستعينا بالمنهج الفني في بعض ملامح الدراسة.

الدراسات السابقة

الشعر الجاهلي حظي بدراسة واسعة تاريخية ونقدية، إلا أني لم أفق على بحث يجمع سمات القصيدة الجاهلية من خلال استقراء شعر الشعراء والتركيز عليها، فقامت بقراءة القصيدة الجاهلية؛ من خلال الاستفادة من نظرية عمود الشعر، واستخراج سماتها؛ مؤيدة بنماذج خصبة من شعر الجاهلية. ويبقى الشعر الجاهلي ميدان دراسة مستقيضة بحسب ذوق الباحث وخبرته في المعالجة وإن تشابهت الموضوعات التي يتناولها النقاد؛ لأن الشعر الجاهلي ثورة أدبية عظيمة تزداد اتقاداً بالقراءة والتدبر.

تمهيد

القصيدة الجاهلية هي المنبع الأصيل الذي مد الشعر -إلى يومنا هذا- بنظام تقليدي فني، يملك الطاقة الشاعرية، ويضفي على الشعر جمالا لا يمكن استبداله بشيء. لأنه تميز بنظام مستقل، يحفظ له هيئته وخصائصه التي تسهل

الأدبي، وطريقة تلقي الشعر، حتى غدت القصيدة الجاهلية مثالا يُستوحى، ومدرسة تمد القوم بأساسيات من حياتهم الثقافية، والفكرية، والاجتماعية. هذا ولقد ورثنا شعرا عربيا جاهليا عملاقا في بنائه الشعري، وفي خياله الخصب، وفي عاطفته الصادقة، وفي بنائه الموسيقي. هذا الشعر يمثل مرحلة متطورة من الأداء الأدبي، ومن التجربة الشعرية الراقية. وكله يمثل وضعاً أدبيا له خصائصه وقسماته، التي تميزه عن غيره بالاحتفاء بذاته بعيدا عن المؤثرات الدخيلة عليه. هذا الشعر هو تاريخ عربي راقٍ يمثل العصر الجاهلي تمثيلا سويا، تاريخ يدل على قوة الذوق والجمال النفسي المُميز لشخصية العربي عن غيره في أعماق التاريخ. لذلك يجد القارئ في كتب الدراسات الأدبية حديثا وافيا عن أهمية الشعر الجاهلي، وعن مكانته الأدبية، وعن دوره في استقرار اللغة العربية، وتهذيبها، وتمكينها في الوصول إلى ذروة البيان العالي.

4. أبعاد تأثير الإرث الشعري

تميز ذلك الإرث بنظام شعري كان أساسا انطلق منه شعراء الحضارة الجديدة في عصر صدر الإسلام، حاملين معهم كل ما ورثوه وفق الذوق العربي الأصيل، ومؤسسين لمرحلة جديدة، وتحول أدبي كبير، أدى إلى صوغ مظاهر الحياة وفق معطيات الإسلام العظيم. وكان من شأن ذلك أن تبقى تعاليم المدرسة الشعرية الجاهلية زما تغذي الساحة الفنية في صدر الإسلام؛ إذ كان من الصعب الانقطاع عن النظام الجاهلي للقصيدة؛ والسبب أن طبيعة الأدب ترفض ذلك؛ لأن الأدب مزيج بين الأفكار والعواطف، يتمخض بسبب تجارب عميقة لأناس مرهفي المشاعر، ذوي وجدانيات إيقاعية ترتبطوا بالمحيط ارتباطا وثيقا مستنديما، أسهموا مجتمعين بنتائجهم في تكوين النظام الشعري المتين على مر عصور متتالية.

مطالب البحث

تتميز القصيدة الجاهلية بسمات أصيلة تولدت في ذلك العصر، وتشعبت بها القصيدة، ولا يمكن تحديدها من خلال دراسة قصيدة واحدة، بل يكون ذلك بالرجوع إلى عدة شعراء، واستقراء دواوينهم، وذلك ما فعلت. ولعل أبرز سمات القصيدة الجاهلية -كما بدا لي- يتمثل في النقاط الآتية:

1. المطلب الأول: سمة العناية بالمقدمة

مقدمة القصيدة الجاهلية، موضوع له خصوصيته، وله ظلاله، التي تعد كيانا فريدا من نوعه يستدعي الوقوف عليه، والتعرف على مميزاته، وقد اعتنى بها الجاهليون، وأخذوا يفرغون فيها كفاً وافيا من المشاعر، والعواطف، لتكون تمهيدا جذابا بين يدي القصيدة، فتتوالت مقدمات القصائد الجاهلية، بتتوالت المواقف المختلفة التي تهز وجدان الشاعر.

واشتهرت منها المقدمة الطليقة، وعلى سبيل المثال نرى قصائد المعلقات السبع، كلها بدأت بالطلل، إلا قصيدة التغلي عمرو بن كلثوم فخرية، وإذا تجاوزنا السبع المعلقات إلى العشر، سجد الأعشى يقدم لمعلقته بمقدمه غزلية، أما صاحبا فضلا الطليقة، وهذا يقودنا إلى تساؤل هو: هل المقدمة الطليقة نمط مفروض في تلك البيئة على الشعراء، أم أنه مستحب؟ وللإجابة على هذا التساؤل كان علي تصفح بعض دواوين الجاهليين، فتصفتحت ديواني النابغة الذبياني، وديوان عنتر بن شداد، ولم أجد القصيدة الطليقة هي الغالبة على كل شعريهما، بل وجدتها معدودة في الديوانين، ففي ديوان عنتره مثلا، لا يزيد هذا النوع من القصائد على تسع (انظر: ص: 51، 62، 64، 67، 81، 84، 87، 96)، وباقي القصائد نجد إما غزلية -وهي كثيرة- وإما خمرية، وإما غرضية -بحسب نوع الغرض- يتكلم فيها عن شجاعته، وبلائه في الحرب، وغربته في قومه، ونحو ذلك.

ومهما يكن من الأمر؛ فإن المقدمة الطليقة من سمات بعض القصائد الجاهلية، وليست سمة مطردة في كل القصائد. فمحاكاتهم للأطلال نوع من أنواع التفتيش عن المشاعر، والبوح عما في النفس العربية من عواطف، تدعو الشاعر أن يخاطب الطلل الدارس؛ الذي يعد أثرا يُذكر بالأحبة. وهذا وفاء ما بعده وفاء؛ أن يذهب الشاعر إلى آثار بالية تذكره بأحبابه الذين رحلوا، ويلتمس متنفسا لما يعتل في صدره، وربما تخيل من خلاله مآل الحياة.

للشعراء نظمهم والتميز به، وهذه الخصائص هي في الأساس العمود الذهبي الذي دار حوله الشعر الجاهلي، وحظي به الشاعر الجاهلي كرمز يميزه عن غيره في خط سير الأدب العربي والعالمي على حد سواء، ذلك الشاعر الذي كان يمثل ثقافة عصره بجميع جوانبها.

ويعد زمن الجاهلية العربية مثالا للتطور الأدبي؛ الذي عاشه العرب، ومن يقرأ شعرهم ينبهر كيف صار لهم ذلك النظام المتماسك، والتعبير الخلاب، الذي لا يمكن أن يفسر إلا بعباءة من الله من به عليهم. فصار من البديهي أن العرب قبل الإسلام كانوا أصحاب بيان بلغ الذروة، واكتظت الكتب بدراسة هذا البيان، من شعر ونثر، وكان حظ الشعر أوفر، والشعر العربي القديم يعد شعرا ناضجا، محكما بناؤه، قوية قواعده، لا يفهم سره ويطلع مذاقه إلا من ألم بأحوال بيئته، وعرف خصائص لغته؛ فالعرب أمة شاعرة، ذات أحاسيس مرهفة، يهزها الشعر، وتعمل فيها العواطف عملها.

وقد تميزت الجاهلية العربية بكثرة شعرائها، فلا تكاد تخلو قبيلة، أو بطن من شاعر، والبطون والقبائل العربية عددها كبير، جل أن يحصى، واتفق شعراؤها على لغة قريش لريادتها وتميزها؛ ومن هنا وجب علينا بيان الآتي:

1. اهتمام الجاهليين بالشعر

قد صار من البديهي أن العرب قبل الإسلام كانوا أصحاب بيان بلغ الذروة، واكتظت الكتب بدراسة هذا البيان، من شعر ونثر، وكان حظ الشعر أوفر، وذلك لما له من أهمية وأثر بالغ في المجتمع الجاهلي، فاهتم العرب بنظام القصيد وجعلوا للشعر محافل يتناشدونه فيها، وما خيمة النابغة الذبياني في سوق عكاظ بعيدة، فهي أحد محاور الدراسة النقدية عن شعر الجاهليين، يهتم بها كل من يدرس النقد العربي. والمتأمل في الأبيات الآتية؛ من قول لقيط بن زراراة [من البحر الطويل] (الجاحظ، 46/3):

وَأَتَى مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَزَفْتُهُمْ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ
نُجُومٌ سَمَاءَ كُلِّمَا غَارَ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأْرِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ
أَصْأَعَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دَجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعَ ثَائِقَهُ
يجد سلاسة انسياب الكلام، وملاءمة اللفظ للمعنى، وقوة التخيل، وجمال الصورة، وشدة الترابط، وعذوبة النغم، وصدق الإحساس بما يقول؛ دون تكلف ملحوظ، ولا تعنت في اختيار اللفظ، وذلك لقوة الشاعرية في نفس الشاعر، وانقياد الألفاظ له.

فاهتم الجاهليون بالشعر اهتماما كبيرا بلغ أقصاه، والسبب في ذلك كله حبهم للغة وقدرتهم على تمييز الجودة والحسن في الكلام، وفزوعهم إليه كمتنفس أساسي لا يوجد ما يماثله في التأثير في النفوس، وتهذيب الطباع، وبعث الهم والنشاط.

2. اتفاق الجاهليين على لغة مشتركة

إن المتأمل في الحياة الجاهلية يرى كثرة الشعراء فيها، فلا تخلو قبيلة من شاعر، وقد يفوق عدد الشعراء فلا يحصى في بطون من البطون القبائل العربية، وقد اتفق شعراؤها على "لغة مشتركة، استمدت أبرز خصائصها من لهجة قريش، التي طغت على سائر اللهجات الأخرى، فأصبحت لغة الأدب بشعره ونثره" (عبد التواب، 165). ومع تباين اللهجات في المنطقة العربية تباينا ملحوظا، لا يبعد بعضها عن بعض كثيرا، فقد كان هذا التباين في مدلولات بعض الألفاظ، وفي بعض الوجوه الإعرابية، أو الصرفية، أو الصوتية، أو نحو ذلك مما يحدث بين لهجات لغة واحدة، انظر: ابن فارس، أحمد، ص: 25 وما بعدها). والأمر الذي أهّل لهجة قريش، هو ما لمكة المكرمة من: مكانة دينية، وسيادية بين العرب، ومركز تجاري أيضا، فتهيأ للهجتها التميز والارتقاء، والمتصفح لدواوين الشعر العربي الجاهلي يرى ذلك واضحا.

3. أهمية الإرث الشعري

عاش العرب دهرا من حياتهم في ضوء العادات القبلية، مقلدين إرث الآباء، ومحافظين عليه كجزء من نظام حياتهم متين، يرون الخروج عليه شيئا يعود على صاحبه بالويل، فاستحكم فيهم عُرفٌ ناشئٌ عن أصالة المنبع، وتقليدٌ يجاري القيم التي يستميتون في إيصالها لمن بعدهم. وكان من ذلك النظام

الشاعر. وهذه المعلقة تختلف عن قصائد كثيرة من قصائد الشعر الجاهلي، وذلك لأن الشاعر تحدث فيها عن موضوعات عدة، كما تُرى للوهلة الأولى، ولكننا إذا تأملناها حق التأمل، مستحضرين تجارب الشاعر، رابطتين بين فكرة القصيدة الأم وبين موضوعاتها، لاتضح لنا وحدة الموضوع؛ الذي من خلاله نلتبس الترابط، وذلك أن الشاعر يريد أن يقف متذكرا بعضا من أيامه الغابرة، وتجارب المتعددة، تذكر الحزين المتأمل، فـ"إذاب هذه المكونات المختلفة من ذكر النساء، وذكر الهيم، وذكر الصيد، وذكر البرق، ومزجها مزجا واحدا بكلمة واحدة، ذكرها في أول القصيدة، وهي كلمة ذكرى فأدخل هذا كله في باب الذكرى، وجعل الكل معلقا بها ومنظوما في سلكها". (أبو موسى، 27). فراح يسوق لنا الأحداث، حتى وصل بنا إلى خلاصة الذكريات؛ التي من خلالها تأمل الشاعر في نهاية الحياة، وفناء الخلق، وقد وصل إليها بعد عمر انقضى في اللهو واللعب، ثم طلب الثأر لأبيه، وما هو يخرج بخلاصة هذا العمر ليسوق لنا مشهد المطر، كخاتمة لقصيدة الذكريات، ويبين كيف هذا المطر يفعل فعله في الطبيعة، ويدمر كل شيء يكون أمامه ليذهب إلى منتهاه، وكأنه يقول هكذا بدأت حياتي كبداية المطر، وهكذا ستنتهي كنهاية السيل في صحراء الغبيط، وهذا التأمل ليس جديدا على امرئ القيس فله في ذلك كلام، إذ يقول في قصيدة متأملا يبدأها بهذه المقدمة [من البحر الوافر] (القيس، ص: 43):

وَأَرَانَا مَوْضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسَخِرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
عَصَافِيرَ وَذَبَابَ وَدَوْدَ وَأَجْرًا مِنْ مُجَلَّحَةِ الذُّنَابِ
جَلَحَ الذَّنْبِ: جرؤ (مجمع اللغة العربية، 1، 129)

ويقول فيها أيضا (القيس، 43):
إلى عرق الثرى وشجبت غروقي وهذا الموت يسلبني شبابي
ونفسي سوف يسلبها وجرمي فيلحقني وشيكا بالثراب
فإذا قرأنا معلقة امرئ القيس من المنطق الذي يبينه أنفا فإننا سنخالف رأي من يقول: "فما نظن أن معلقة امرئ القيس بقادرة على تحقيق هذا التوازن بين المواد المتنافرة المتصارعة التي اشتملت عليها". (العشماوي، 196).
هذا وليس في احتواء القصيدة على عدة مقاطع، أو أغراض شفافة ما يبعدها عن الترابط والتلاحم، فـ"حين ندقق النظر في هذه الأغراض المتعددة نلاحظ أنها في القصيدة الواحدة ترجع عادة إلى أصل موضوعي واحد تتفرع منه كما تتفرع أغصان الشجرة من جذعها، فليس التعدد هنا تعددا في الموضوع، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع، فلامية ذي الكلب الهذلي على كثرة ما تتاوله فيها من أغراض فرعية من حديث إلى صاحبته عن غزواته، ومن حديث عن تربص أعدائه به، وتربصه بهم وتهديده إياهم، ومن حديث عن رفاقه وعن أسلحته وعن المراقبة التي يترصد فوقها، ترجع في حقيقة الأمر إلى موضوع واحد هو ذلك الصراع بينه وبين أعدائه، حتى ليصح أن نسميها صراع الصلوك" (خليفة، 266).

3. المطلب الثالث؛ سمة صدق المشاعر في التعبير

تميزت القصيدة الجاهلية بصدق التعبير عما يختلج في نفس الشاعر، وتعد مرآة لمعترك المشاعر والأحاسيس، الأمر الذي يجعل قارئها اليوم يشعر بها، وبطرب لموسيقاها، وهذا الصدق يعود إلى طبيعة حياتهم الفطرية، وإلى نزاهة نفوسهم، إذ نشأوا على محاسن الأخلاق، وكانوا يمتقنون الكذب، ويرونه من أكبر العيوب، فانعكس ذلك على أدبهم، وشعرهم خاصة، فأصبح الصدق ميزة للقصيدة الجاهلية، وهذا الصدق يكون بصدق المشاعر، والأحاسيس تجاه المعاني التي ينشدها الشاعر في شعره، وإن بالغ وذهب في مبالغته المذاهب، إلا أنه يعبر عن النفس العربية الأبية التي لا تقبل الضيم. ولناخذ نموذجا للشنفرى يقول فيه [من البحر الطويل] (الشنفرى، 32-33):

فَوَا كَبِدَا عَلَى أَمِيمَةٍ بَعْدَمَا طَمَعَتْ فَهَبَهَا نِعْمَةَ الْعَيْشِ زَلَّتْ
فِيَا جَارَتِي وَأَنْتِ غَيْرُ مُلِيمَةٍ إِذَا ذُكِرَتْ وَلَا بِذَاتِ تَقَلُّبٍ
لَقَدْ أَحْجَبْتَنِي لَا سَقُوطاً قِنَاعَهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَقُّبٍ
تَبَيَّنَ بُعِيدَ النَّوْمِ تَهْدِي غَوَّقَهَا لِجَارَتِهَا إِذَا الْهَدْيَةُ قَلَّتْ
تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيِّنَهَا إِذَا مَا يُبْثَوْتُ بِالْمَذْمَةِ حُلَّتْ

ومع ذلك كله فإننا نجد الأمر واسعاً عندهم، فمثلاً لامرئ القيس قصائد كثيرة ليست طليية، يمتلئ بها ديوانه، وهذا الأمر كثير عند الجاهليين، بل إن شعراء الصعاليك تخلصوا من المقدمة الطليية في شعرهم. (انظر: خليف، 268).
وأصبح هذا الصنيع ظاهرة في قصائدهم جديرة بدراسة مستقلة. ويمكننا القول إن مقدمة القصيدة العربية الجاهلية أخذت صوراً عدة؛ على نحو ما يأتي:
1. طليية. 2. خمريية. 3. غزلية. 4. بحسب الغرض.
وهذه نماذج لهذه الصور:

فمن الطليية، قول طرفة [من البحر الطويل] (ابن العبد، 19):
لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِرُقَّةٍ تَهْمِدُ تَلُوخُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
ومن الخمريية: قول عمرو بن كلثوم [من الوافر]. (كلثوم، 64):
أَلَا هُبَيِّ بِصَحْبِكَ فَاصْبَحْنَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
ومن الغزلية، قول عبيد بن الأبرص [من البحر الطويل] (الأبرص، 39):
نَأْتَاكَ سُلَيْمَى فَالْفُؤَادُ قَرِيحٌ وَلَيْسَ لِحَاجَاتِ الْفُؤَادِ مُرِيحٌ
وأما بحسب الغرض، فمثالها قول النابغة في الاعتذار [من البحر الطويل] (الذبياني، 20):

أَتَانِي أَبَيْتُ اللَّعْنَ أُنْكَ لَمْتَنِي وَتِلْكَ أَلْتِي أَهْتُمْ مِنْهَا وَأَنْصَبُ
وقول زهير في الفخر [من الوافر] (أبو سلمى، 73):

أَلَا أَبْلِغُ لَدَيْكَ بَنِي ثَمِيمٍ وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالْخَيْرِ الظَّنُونُ
بِأَنَّ بُيُوتَنَا بِمَحَلِّ حَجَرٍ بِكُلِّ قَرَارَةٍ مِنْهَا نُكُونُ
وقول عبد يغوث يرثي نفسه [من البحر الطويل] (الضبي، 155-156):

أَلَا لَا تُلُومَانِي كَفَى اللَّوْمُ مَا بَيَا وَمَا لَكُمْ فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَامَةَ تَفْغَهَا قَلِيلٌ وَمَا لُومِي أَخِي مِنْ شِمَالِيَا
ويطول بي المقام، إن أردت استقصاء هذا النوع من المقدمات، التي تكون بحسب الغرض المسوق له القصيدة، وحسبي ما قدمت.

2. المطلب الثاني؛ سمة التحام أجزاء النظم

تكلم النقاد قديماً وحديثاً، حول الوحدة العضوية في القصيدة الجاهلية، بين منكر لها ومدافع عنها، ولست هنا بصدد مناقشة آراء النقاد (انظر: هلال، 204، وانظر: مولوي، 119)، ولكن ما يعنيني؛ هو إظهار ما تميزت به القصيدة الجاهلية من خصائص تصب في هذا الموضوع.
والقصائد الجاهلية التي بين أيدينا كثيرة، متنوعة في بنائها، فبعضها ما يحاكي موضوعاً واحداً، وتسير به الأبيات تصاعدياً، حتى تصل إلى منتهى الغرض، ومنها ما ينتقل من موضوع إلى آخر، ولكن في سلاسة وجدة، تحكمها فكرة واحدة، وأثر نفسي واحد. وإذا ما نظرنا إلى قصيدة عبد يغوث بن صلاء الطويلة -الأنفة الذكر- التي يرثي فيها نفسه، وينوح عليها، ويبدأها بقوله [من البحر الطويل] (الضبي، 155):

أَلَا لَا تُلُومَانِي كَفَى اللَّوْمُ مَا بَيَا وَمَا لَكُمْ فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا
فإننا نجد ذات موضوع واحد هو بكاء النفس، وبيان ما آلت إليه. ونرى أبياتها تتصاعد، واحداً تلو الآخر، كأنها بناء محكم، لا تغادر فكرة الرثاء، نحو قوله (الضبي، 157-158):

أَحَقُّ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ سَامِعًا نَشِيدَ الرُّعَاءِ الْمَعْرِبِينَ الْمَتَالِيَا
وَتَضَحَّكَ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشِيَّةٌ كَأَنَّ لَمْ تَرِ قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا
ويختمها بقوله (الضبي، 158):

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلَ لِحَيْلِي كُرِّي نَفْسِي عَنْ رَجَالِيَا
وَلَمْ أَسْبَأِ الزُّقَى الرَّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلَ لِأَيْسَارِ صِدْقِ أَعْظَمُوا ضَوْءَ نَارِيَا
وإذا ذهبنا إلى شاعر آخر، وليكن امرئ القيس، وطلعنا معلقة (انظر: القيس، 110 وما بعدها) التي تعددت مقاطعها، وانتقل الشاعر فيها من موضوع إلى آخر، لوجدنا رابطاً قوياً يربط أجزاءها بالموضوع الأصلي الذي أرادته

عدلا، والناس يحسدونهم على ما أعطاهم الله، فيدعو لهم الشاعر ببقاء هذه النعمة.

وهذا نموذج واضح على بساطة التعبير، مع جمال العبارة، وصدق العاطفة، فالشاعر يمدحهم بأنهم: ليسوا كالأخرين في إخلاف الوعد والاجتهاد في طلب الفراق، ويمدحهم بالكرم، وطيب النسب الذي يعد أساسا في المدح في البيئة العربية البدوية، ويمدحهم بالشجاعة والإقدام، وبحسن التعامل مع الآخرين، ثم يختم ذلك بأنهم لا يعدلهم أحد بوزن أو مكايلة، والناس في هذا يحسدونهم، فيسأل الله أن يديم عليهم النعمة. وهذا نموذج آخر للشنفرى [من البحر الطويل](الشنفرى، 59):

لَعَزَّكَ مَا بِالْأَرْضِ ضَيْقٌ عَلَى أَمْرِي سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَغْفُلُ
وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ غَمَّسَ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءٌ جِيَالُ
هُمْ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ الْمَرْزَ دَانِغَ لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَزَّ يُخْذَلُ
وَكُلُّ أَبِي بَاسِلٍ غَيْرَ أَنَّنِي إِذَا عَزَّضْتُ أَوَّلَى الطَّرَائِدِ أُنْسِلُ
وَأَنْ مُدَّتْ الْأَيْدِي إِلَى الرَّادِ لَمْ أَكُنْ بَأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْسَعُ الْقَوْمَ أَعْجَلُ
فالشنفرى لما ضاق به المقام، في أهله وقبيلته، مشى في الأرض؛ التي يراها واسعة لا تضيق بأحد، سواء كان راهبا أو راغبا، واستبدل قومه بقوم آخرين، وجعلهم مجتمعه الذي يأنس فيه، وهؤلاء هم الذنب والضبع والوحش، مجتمع الوفاء والعهد عند الشاعر، فلا يذاع فيه السر، ولا ينزل فيه الصديق، وأصحابه يدافعون عن هذه الخصال، بما جباهم الله تعالى من القوة والبسالة، والشاعر كذلك يتصف بها، بل هو أبسلهم، وأكثرهم قناعة وعفة. ولا شك أن هذه نظرة صادقة للبيئة التي عاشها الشاعر، ولم يذهب بعيدا عنها، فإن كان الإنسان يبني جنسه مستوحشا، فالحيوان الوفي ينتظره لبيادله صداقة مماثلة في الوفاء، وهذا دال على سطحية النظرة إلى الحياة، وسذاجة الفكر الذي تمثله هذا الشاعر.

5. المطلب الخامس؛ سمة غزارة المعنى

مما تميزت القصيدة الجاهلية به أيضا غزارة المعنى؛ إذ اشتمل كثير من تلك القصائد على معان متعددة متنوعة، يحكمها نظام رابط. وغزارة المعنى سمة يجدها من يقرأ ذلك الشعر. ومما يوضح غزارة المعنى ما سماه النقاد: وحدة البيت. ومعناه أن البيت يتم معناه في نفسه، بحيث يصلح ليكون شاهدا بذاته، وقد سماه ابن سلام الجمحي: "مقلداً، والمقلد البيت المستغني بنفسه، المشهور الذي يضرب به المثل" (الجمحي، 360/2-361). وهذا ما وجه الشاعر الجاهلي عنايته إليه، فـ"كان البيت الواحد، يعبر عن حاجته، ويستوعب اللحظة الشعرية التي يعانيتها بكل أبعادها" (التليسي، 7). فالحارث بن حلزة - على سبيل المثال - يصف قيام ناقة ثقيلة ببيت واحد؛ فيقول [من البحر الكامل](حلزة، 53):

وَتَتَوَّءُ تُثْقَلُهَا زَوَادِفُهَا فَعَلَّ الضَّعِيفُ يَنْوَأُ بِالْوَيْسِقِ
إنه يصف انبعاث ناقة مثقلة؛ بصعوبة ومشقة، ويقابل صورة نهوضها وقيامها بقيام جمل ضعيف محمل، فشرط هذا البيت يحمل لوحة مليئة بالحركة الثقيلة، مع تفسير لهذا الثقل، وكلمة تنوء تحمل في نفسها معنى الحركة الصعبة، المصحوبة بالثقل، فـ"نأ بالحمل إذا نهض به مثقلا". (الزبيدي، 471/1). ثم نرى الشاعر يفسر هذا الثقل بصورة حركية حية، تثير خيال السامع، فروادفها هي التي تثقلها، وتميل بها إلى الأرض، فتتحامل هذه الناقة لتقف، ويترأى لنا هذا المشهد بكل تفاصيله، وكل هذا المشهد البطيء في شطر بيت، وتقابله صورة أخرى تقرب المشهد للأذهان في الشطر الثاني، هي صورة الجمل الضعيف المحمل، الذي ينهض بثقل، ومن خلال بيت واحد نرى صورتين جميلتين، دعتهما عاطفة الشاعر ناحية الناقة، وأبرزها خياله للعيان. وهذا بيت لعبيد بن الأبرص، يصف فيه فرسه [من مجزوء البسيط](الأبرص، 25):

كَأَنَّهَا لِقَوَّةٍ طَلُوبُ تَجَنُّ فِي وَكْرَهَا الْقُلُوبُ
يشبه فرسه بالعقاب في الانقضاض على فريسته، واصطيادها، واقتربها تاركة قلبها يتحرك، وهذه إشارة إلى السرعة في إنهاء الفريسة، وابتلاعها، حتى إن الروح ما زالت تسير في قلبها بعد أكلها، وهذا المعنى الكامل البديع في بيت واحد، وكل شطر من البيت يمثل معنى مكتمل الأبعاد والتفاصيل،

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسْيًا تُقْصُهُ عَلَى أَمِّهَا وَإِنْ تُكَلِّمُكَ تَبْلُتْ
أُمِّيَّةٌ لَا يُخْزِي نَتَاها خَلِيلُهَا إِذَا ذُكِرَ النَّسَوَانُ عَقْتُ وَجَلْتُ
فكلما قرأنا هذه الأبيات، وجدنا صدق الحب الذي يعالجه الشاعر فيها، وصدق معاناته لفراق حبيبته، مظهرًا لجمالها الطاهر الكامن في صفاتها، فحبه لها ليس لمحاسن خلقها، بل لمحاسن خلقها، ولتنظر إلى هذا البيت الثالث الذي ولّد إعجابه بها؛ فإننا نرى امرأة شديدة الحياء، فإذا ما مشيت رافقها الأدب، وابتعدت عما بدوره أن يلفت أنظار الآخرين إليها، فلا تسقط قناعها، ولا تتلفت يمنة ويسرة، ومثل هذه المرأة فإن حياء عظيمًا يجلبها إذا مشيت، ونرى هينتها في المشي كهيئة من ضاع منها شيء، فقطأطى رأسها تبحث عنه، هذا وإذا تكلمت فإنها لا تطيل حديثها بل تقلل من الكلام لفرط حياها. هذا ولا أدل على هذا الصدق في الشعر الجاهلي من قصائد الرثاء، التي تمتلئ بالبكاء الصادق، وبالعاطفة الجياشة، وبالمشاعر المرهفة. وها هو المهلهل بن ربيعة يبكي أخاه كليب؛ فيقول من [البحر الوافر](ربيعة، 31-32):

أَهَاجُ قَدَاءَ عَيْنِي الْأَذْكَارُ هُذُؤًا قَالْدُمُوعُ لَهَا انْجِدَارُ
وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ نَهَارُ
وَبَثُّ أَرَاقِبِ الْجَوَازِ حَتَّى تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا انْجِدَارُ
أَصْرَفْتُ مَقْلَتِي فِي إِثْرِ قَوْمِ تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ بِهِمْ فَعَارُوا
وَأَبْكَى وَالْجُودُ مُطْلَعَاتُ كَأَنَّ لَمْ تَحْوِهَا عَيْنِي الْبَحَارُ
لَقَادَ الْخَيْلَ يَحْجُبُهَا الْغُبَارُ عَلَى مَنْ لَوْ نُعِيتُ وَكَانَ حَيًّا
يبكي الأخ أخاه، وتتحدر دموعه، وتأتي صورة أخيه أمامه في الليل، فإذا الليل بطيء، وكأنه ليس له نهار، ويصبح شغل المهلهل البكاء المر ومراقبة الجوزاء، وكل هذا في تعبير شفاف، ليس به تعقيد ولا غموض، وليس فيه مبالغة، بل نجد الألفاظ تعبر بصدق عن محتواها، فالكلمات: الانذار، الدموع، الليل، غاروا، نعت، وغيرها، تمثل صدق المعنى، وعمق حزن الشاعر، على أخيه القتيل.

4. المطلب الرابع؛ سمة بساطة الأفكار، والمعاني

من خلال قراءة الشعر الجاهلي نجد الشخصية الجاهلية بسيطة في تناول حياتها، وذلك بسبب الحياة الفطرية التي عاشتها، والمجتمع البسيط الذي اشتمل عليها، فالأصل في حياة العرب آنذاك البداوة، والبعد عن زخارف الدنيا خاصة في القبائل التي عاشت في عمق الجزيرة. وكان الهم مصروفًا نحو البحث عن أماكن الكلأ والماء، فتنزع القبيلة ذلك المكان، وتضرب خيامها فيه، وتستمر حياتها على الرعي والصيد. هذا وإن كانت بعض المناطق العربية مشهورة بالزراعة فإنها قليلة، والغالب الأعم على حياة العرب البداوة، الأمر الذي جعل ذلك واضحًا في أدبهم، وصورة لنا شعرهم، وسنسوق بعض النماذج لمعرفة ذلك؛ يقول زهير مادحا هرم بن سنان وإخوته [من البحر البسيط](أبو سلمى، 21):

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَ الْبَيْنِ فَانْجَزُوا وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا
لَوْ كَانَ يَغْدُو فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ لِأَوْلَاهُمْ يَوْمًا إِذَا قَعَدُوا
قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
جَنْ إِذَا فَرَّغُوا إِنْشَ إِذَا آمَنُوا مَمَرْدُونٌ بِهَالِيْلٍ إِذَا جَهَدُوا
لَوْ يُعْدَلُونَ بوزنٍ أَوْ مُكَايَلَةٍ مَالُوا بِرَضْوَى وَلَمْ يُعْدَلْ بِهِمْ أَحَدُ
مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَا بِهِ حُسُودُوا

نجد زهيرًا هنا يبدأ مدحته هذه بالتعريض، بأولئك الذين يخاطبون القوم ويكونون معهم، حتى إذا وجدوا مصلحة اجتهدوا في الحصول عليها، وطلبوا لذلك الفراق والبعد، فتركوا أصحابهم وانجردوا، وصاروا مخلفين لما تقتضيه حياة الجماعة. ولكن قوما ليسوا بأمثال أولئك، هم قوم سنان، الذين وصلوا بصفتهم الطيبة إلى منزلة كبيرة -كما يرى الشاعر- فراح يقدمهم على كل الناس، إذ هم طيبون، ولا يلدون إلا طيبًا، ومع هذا فهم في الحرب أشداء، بل إن صفتهم عند الفرع والنجدة، صفة الجن في السرعة، وإحداث الرعب في الآخرين، وفي السلام يكونون إنسا، وأصحاب نفوس كبيرة، ولو كان لمثلهم ميزان، لفضل ثقلهم على جبل رضوى، ولم يكن أحد الجبل المعروف لهم

عن تجربته، وهذا الخيال الخصب هو الذي ساعد الشعراء قديماً، ويساعدهم حديثاً على جمع الأفكار، وصياغتها صياغة مؤتلفة، يحكمها الشعور والوجدان، وتفيض بها التجارب الحقة.

7. المطلب السابع؛ سمة فخامة اللفظ، وانسجامه في السياق

كانت العربية قد وصلت أوج عظمتها في العصر الجاهلي، وذلك في حدود الطاقة البشرية، وتميزت باستخدام الألفاظ المناسبة للمعاني، بملكة ابتعدت بأصحابها عن التكلف، والوقوع في الخطأ، وصاغت لهم الألفاظ في مواضعها المناسبة، فتميز شعرهم بجزالة ألفاظه، وفخامتها، وأعني بذلك كما قال ثعلب في اللفظ الجزل: "مالم يكن بالمعرب [بضم الميم] المستغلق البدوي، ولا السفساف العامي، ولكن ما اشتد أسره، وسهل لفظه، ونأى واستصعب على غير المطبوعين" (ثعلب، 63). والألفاظ بهذه السمة تكتظ بها القصائد العربية الجاهلية، ونجدها ملائمة للمعاني، معبرة عن مراد أصحابها تعبيراً أسراراً، شفافاً لا سيما عند كبار الشعراء، ومثال ذلك ما يقول الأعشى في وصف المحبوبة [من البحر البسيط] (الأعشى الكبير، 55-56):

إِذَا تَقَوُّمُ يَضُوعُ الْمِسْكَ أَصُورَةً وَالزَّنْبَقُ الْوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمْلُ
مَا رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْخَزَنِ مُعْشِبَةً خَضِرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلُ
يُضَاكُ الشَّمْسُ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرْقُ مُوَزَّرٌ بِعَمِيمِ السَّنْبِتِ مُكْتَلُ
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا تَشْرِ رَائِحَةٍ وَلَا بِأَحْسَنِ مِنْهَا إِذْ نَسَا الْأَصْلُ
في هذه الأبيات يريد الشاعر التغني بمحبوبته، من خلال إبراز بعض صفاتها، فهي ذات رائحة عبقرة فريدة، فأثناء قيامها يفوح منها المسك، نفعا منتشرا، وليست رائحة المسك التي تفوح منها فقط، بل نجد رائحة طيبة أخرى، هي رائحة زهر الزنبق المائل إلى الحمرة، تفوح من أطراف أكمائها. ولكي نعرف أكثر عن طيب رائحتها، يخبرنا الشاعر أنه لا يعتقد أن روضة محمية في مكان يصعب الوصول إليه لا تتلوث بشيء، ملينة بالأزهار المختلفة، ومحاطة بهواء عليل، وخضراء يسقيها المطر بكرم وسخاء ورحمة، بدفوعات متكررة، وتطلع عليها الشمس، فيسطع بريق ذلك الماء في مشهد مثير، وفي هذا دلالة على عذوبة الجو، وصفاء الماء. ونرى الماء أيضا كأنه جدول محاط بالنباتات الفتية الجميلة، التي صارت له لباسا يحتمي به. فما أروع صورة هذا المكان! وما أطيّب رائحته! ومع هذا فليست رائحة الروضة بأسرها وأريجها أطيّب من دفعة واحدة من رائحة المحبوبة، ولا تقبل العين أن تفضل هذا المنظر على النظر إلى الحبيبة، وذلك في أحسن أوقات الاستمتاع بالهواء والطبيعة، وقت العصر. ولأجل هذه المعاني استعان الشاعر باللفظ الأصلي، لإظهارها، وإظهار عاطفته تجاهها، فجاءت ألفاظه عذبة، جزلة، سهلة ومعانيها أسرة؛ ومن تلك الكلمات: يَضُوعُ، الزنبق، الورد، روضة، معشبة، هطل، يضاحك، شرق، موزر، مكتل، أطيّب، نشر، أصل. فهذه الألفاظ، وكل ألفاظ الأبيات تطوحت ضمن التراكمات المحكمة التي اكتتفتها لشاعر مطبوع، وجد اللغة أداة طيعة سهلة، فاستقام له المعنى المطلوب، في أعذب لفظ، وجودة سيك. ومثال آخر أخذ لبيان هذه السمة، هو قول الحارث بن حلزة [من مجزوء الكامل] (حلزة، 46-47):

مَنْ حَاكِمٌ بَيْنِي وَبَيْنِ الدَّهْرِ مَا لِي عَلَى عَمْدَا
أَوْدَى يَسَادَتِنَا وَقَدْ تَرَكُوا لَنَا جَلْعًا وَجُرْدَا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا قَدْ جَمَعُوا مَالًا وَوُلْدَا
وَهُمْ زَبَابٌ حَائِرٌ لَا تَسْمَعُ الْأَذَانُ رَعْدَا
فَانْعَمْ بِجَدِّ لَا يَصِيرُ كَالنُّوْكَ مَا أُعْطِيَتْ جَدَا
فَالنُّوْكَ خَيْرٌ فِي ظِلِّهِ لِي الْعَيْشُ مِمَّنْ عَاشَ كَدَا
هَلْ يُحَرِّمُ الْمَرْءُ الْقَوِيَّ وَقَدْ تَرَى لِلنُّوْكَ رُشْدَا
يعيش الشاعر في هذه الأبيات جوا نفسيا صعبا، فتمّ مشكلة بينه وبين الدهر، إذ قصد الأخير صاحبنا عمدا، فأهلك السادة الذين ينتمي إليهم، والذين خلفوا أسباب الحرب، وتركوا للشاعر وأصحابه دروعا، وأسلحة، وخيلا جاهزة مدربة. وهذا النوع من الحياة الصعبة يعيشها أهل الشاعر، وأصحاب الرأي والسيادة في ذلك العصر. وهناك آخرون لا يعيشون هذه الحياة المليئة بالقتل والحرب، وهم الحمقى الذين لا يأبهون بما يحدث، من مشاكل وحروب، وقد

فالشطر الأول يشبه فيه الفرس بالعقاب القوي المتميز، وفي الشطر الثاني يصور سرعة الفرس، وانقضاضها على الفريسة بسرعة العقاب المنقض على فريسته تاركا بقاياها التي لا تؤكل. هذه نماذج لما تميزت به القصيدة الجاهلية، من غزارة المعنى، وتمام الفكرة في البيت الواحد، وهذا البيت الواحد مع نظرائه يشكل القصيدة الجاهلية، فتغدو مكتظة بالمعاني والأفكار.

6. المطلب السادس؛ سمة الخيال الواسع

حياة العرب في الجاهلية كانت مصدرا غنيا في الإلهام، غذى خيال الشعراء، وأكسبهم سعة الأفق، وأصالة التفكير وكل ذلك أمر بديهي لأناس عاشوا في كنف الصحراء، في زمن كان الخيال وسيلة اتصال، تنبعث من خلالها العواطف والمشاعر، لتسمو محقة بعيدة عن هموم الحياة، ومشاكل العيش، ولكن في حدود اقتضتها بساطة الحياة، فابتعدوا عن الإسراف في الخيال، والغلو فيه، وهذه السمة ميزة تميزت بها القصيدة الجاهلية، وغدت فيما بعد الشعر العربي، وساعدت الشعراء على الاستفادة من الخيال الخصب. ولنأخذ بعض النماذج التي بدورها تعرفنا ببعض جوانب ذلك الخيال؛ يقول عنترة [من البحر الوافر] (عنترة، 26):

وَحَيْلٌ غَوْدَتْ خَوْضَ الْمَنَابِيَا تَشْتَبِي مَفْرَقَ الْوَلِيدِ
سَأَحْمِلُ بِالْأَسْوَدِ عَلَى أَسْوَدٍ وَأَحْضِبُ سَاعِدِي بِدَمِ الْأَسْوَدِ
ننقل عبر هذين البيتين إلى جو مثير، وإلى مشهد غني بالخيال، فالموت سيل جارف، لا تهابه الخيل؛ لأنها غودت خوض بحر الموت مرارا. وهذا الموت الذي لا تهابه خيل الشاعر الفارس، يشيب لهوله وسط رأس الطفل الوليد. وفي الغالب يبدأ الشيب في الإنسان من أطراف رأسه، لكن الموت هنا ليس كالموت المعروف، والشاعر يقف أمام هذا الموت موقف الفارس الذي لا يخاف شيئا، فيحملنا بخياله إلى مشهد خوض غمار الموت، فنرى فريقين من الأسود الضارية، قد اتخذ كل فريق الآخر عدوا لدودا، والشاعر واحد من هؤلاء الأسود، يقود فريقه. وخیال الشاعر لا يحملنا إلى ميدان المعركة، فالمعركة لم تبدأ بعد، ولكنه بعاطفته الجياشة الممتلئة غضبا وحنقا، يخلق بنا في سماء خيال يراه هو كالحقيقة. ويقول عبيد بن الأبرص [من الطويل] (الأبرص، 39):

تَأْمَلْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَانٍ يَمَانِيَّةٍ قَدْ تَغْتَدِي وَتُرُوْخُ
كَعُومِ السَّفِينِ فِي غَوَارِبِ لَجَّةٍ تُكْفِّئُهَا فِي مَاءٍ جَلَّةٍ رِيْخُ
يذهب بنا خيال المحب -الذي أصيب بوجدانه، بعدما هاجرت حبيبته- إلى عالم الوجدانيات، في صورة تمثيلية لسير الطعنة، فنراها تسير بتقل وتأرجح، يشبهها بسفينة تبحر في نهر دجلة، الممتلئ ماء عظيمًا، وتهزها الريح، فتتأرجح تارة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، وتارة إلى الأمام، وأخرى إلى الخلف. ولا يكون التمثيل إلا عن طريق الخيال الخصب، الذي يجمع الأفكار، ويترجمها بصورة مرئية، لتنتقل من عالم الخيال إلى عالم الحس والمشاهدة. والشعر العربي غني بهذا، فنجد -مثلا- بيت امرئ القيس الآتي يخلق بنا في خيال عجيب؛ فيقول [من البحر الوافر] (القيس، 150):

أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنَّ الدَّهْرَ غَوٌّ خَتَرُ الْعَهْدِ يَلْتَهُمُ الرِّجَالَا
إِنَّ الدَّهْرَ وَحْشٌ فَتَاكٌ لَا يَرَاعِي الْعَهْدَ، فجعل له صورة عظيمة مخيفة، انتزعها من عالم الخيال، حتى نرى الرجال للدهر لقما يلتهمها، تشبه قطع الخبز الصغيرة حينما يلتهمها الإنسان القوي. ويقول علقمة الفحل [من البحر الطويل] (ابن عبدة، 25):

هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرَقْدَانُ وَلَا جَبُّ لَهْ فَوْقَ أَصْوَاءِ الْمَتَانِ غُلُوبُ
بِهَا جِنْفُ الْخَسْرِ فَأَمَّا عَظَامُهَا فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلْبُ
أراد علقمة أن يعبر عن طبيعة رحلة شاقة للوصول إلى مطلبه، فكان الخيال هو الوسيلة التي ساعدته على إبراز ما يريد إظهاره للعيان، فعلقمة مرتحل في ليل ليس به أنيس إلا نجمان- الفرقدان- وطريق موحش وعر، ودلالات الوحشة مرسومة في الأماكن الصلبة والمرتفعة، ولما ينجو الساري في مثل هذا الطريق، ومما يزيد وحشته تلك الجيف، المبعثرة في جنباته، والتي أكلها الطير، فنرى عظامها بيضاء، وجلودها يابسة. وهذه الصورة التي نراها من خلال بيت علقمة، لم يكن لنا سبيل إلى ذلك، لولا خيال الشاعر، وصدق تعبيره

أبو سلمى، زهير. (1426هـ/2005م). *ديوان زهير*، شرح: حمدو طماس. بيروت، لبنان: دار المعرفة.

أبو موسى، د. محمد محمد. (1429هـ/2008م). *الشعر الجاهلي دراسة في منازل الشعراء*. القاهرة، مصر: مكتبة وهبة.

الأعشى الكبير. (د.ت). *ديوان الأعشى الكبير*، تعليق: د. محمد حسين. القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.

الأمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر. (1411 هـ - 1991م). *المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم*، تحقيق: الدكتور ف. كرتكو، ط1. بيروت، لبنان: دار الجيل.

امروء القيس. (د. ت). *ديوان امرئ القيس*، تصحيح: مصطفى عبد الشافي. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

البكري، أبو عبيد البكري. (1403هـ). *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*. بيروت، لبنان: عالم الكتب.

التبريزي، يحيى بن علي. (د. ت). *شرح ديوان الحماسة*. بيروت، لبنان: دار القلم.

التليسي، خليفة محمد. (1411هـ/1991م). *قصيدة البيت الواحد*، بيروت. لبنان: دار الشروق.

ثعلب، أحمد بن يحيى أبو العباس. (1995م). *قواعد الشعر*، تحقيق: رمضان عبد التواب، القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.

الجاحظ، عمرو بن بحر. (1424 هـ). *الحيوان*، ط2. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

الجمحي، ابن سلام. (د. ت). *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق: محمود شاكر. جدة، السعودية: دار المدني.

حلزة، الحارث. (1411هـ/1991م). *ديوان الحارث بن حلزة*. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

الحموي، ياقوت. (1414 هـ - 1993م). *معجم الأدباء*، ج7، تحقيق: إحسان عباس، ط1. بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

خليف، د. يوسف. (د. ت). *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي*. القاهرة، مصر: دار المعارف.

الذبياني، النابغة. (1911م). *ديوان النابغة الذبياني*. القاهرة مصر: مطبعة الهلال بالفجالة.

الذهبي، شمس الدين. (1405 هـ / 1985م). *سير أعلام النبلاء*، ج25، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط. (ط3). دمشق، سوريا: مؤسسة الرسالة.

ربيعه، مهلهل. (د.ت). *ديوان مهلهل*، شرح وتقديم: طلال حرب. الدار العالمية الناشر.

الزبيدي، مرتضى. (د. ت). *تاج العروس*، ج40، دار الهداية.

الزركلي، خير الدين. (2002م). *الأعلام*، ج8، ط15، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

شداد. عنتره. (1893). *ديوان عنتره*، ط4. بيروت، لبنان: مطبعة الآداب لصاحبها أمين الخوري.

الشنفرى، عمرو بن مالك. (1417هـ/1997م). *ديوان الشنفرى*، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

الضبي، المفضل بن محمد. (د.ت). *المفضليات*، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط6، القاهرة، مصر: دار المعارف.

عبد التواب، رمضان. (1417 هـ / 1997م). *المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي*. القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.

العسقلاني، ابن حجر. (1409هـ/1989م). *نزهة الألباب في الألقاب*، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري. الرياض، السعودية: مكتبة الرشد.

العسقلاني، ابن حجر. (1415هـ). *الإصابة في تمييز الصحابة*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

العشماوي، د. محمد زكي. (د. ت). *قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث*. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

أهم شاعرنا مخاطبين برغد العيش من المال والولد، وهم يشبهون الفئران الصم، التي تولد هكذا لا سماع لها، حازنون في الحياة ليس لهم مقصد سامي، بل إنهم بعيدون عن حياة الناس، لا يتفاعلون في مجتمعهم، وقد صُمِّتْ أذانهم حتى من صوت الرعد، فأشبهوا الموتى، لكنهم يعيشون في رغد وهوء، فلا يطلبون أحداً بثأراً، ولا يطلب منه ذلك.

وشاعرنا قد وصل إلى ذروة الهم بما أصابه من نكبات الدهر، حتى صار الدهر عدواً مباشراً له، فتمنى حياة النُّوك، مدافعاً عن حياتهم إذ أحاط بها الحظ، معلناً أن الحق في رغد من العيش أفضل من الذكاء، والدهاء في هم، وغم، وحرب. ثم بعد هذا يلتفت إلى نفسه، ليردها إلى مورد الآباء والأجداد، بعد أن سرحت تهيم في مراعي النُّوك، ويخاطبها بأسلوب استفهامي إنكاري، هل يحرم المرء القوي؟! لا يكون ذلك، وإن نكب ودار عليه الدهر -وإن كان ذلك صعباً مرامه- إلا أنه سيكون، كما يتحقق الرشد أحياناً لبعض الحمقى، ففي بعض الأوقات، يسمع المرء من أحمق شيئاً يعجب منه طويلاً.

وهذه المعاني والأفكار -التي يبينها الشاعر- وأحاطنا بما فهمناه عنه، من خلال ألفاظ الأبيات- جاءت معبرة عن خلجات نفس صاحبها تعبيراً قوياً، يهز وجداننا، ويؤثر في مشاعرنا، وما ذاك إلا لأنه سلك مع صدق الشعور وحقيقة التجربة؛ مسلك اختيار الألفاظ الملائمة، بطبعه وملكته، فجاء اللفظ موافقاً للمعنى، في فخامة وجزالة، ضمن تراكيب محكمة، متلائمة مع الجو النفسي للأبيات، الذي نشعر به من خلال الألفاظ، فمثلاً الكلمات التالية: (حاكم، الدهر، عمداً، أودى، سادتنا، تركوا، حائر، لا يسمع، النُّوك، الجهل، كذا، يحرم...) جاءت في قمة الملاءمة لجو القصيدة، فهي سهلة اللفظ، قوية الإيحاء، بليغة التأثير بموقعها من السياق في أذن سامعها، وهذا الأمر توفر للقدماء، بسبب صفاء أذهانهم، وقوة اهتمامهم باللغة، ورشادة فطرتهم الذوقية. وبعد هذا الاستعراض لسمات القصيدة الجاهلية يتبين لنا أنها قد تحلت ببناء شعري رائع، يوضح لنا مدى ما كان عليه الجاهليون من حس وذوق وقدره شاعرية، في زمن تحيط به البساطة والسطحية من جوانبه الأربعة، إلا أن شعر لم يكن ذا بساطة، بل كان شعراً قلماً يدانيه شعر.

أهم النتائج

- تأكيد امتلاك القصيدة الجاهلية أسرار البقاء والخلود والتأثير.
- إظهار الطاقة الكامنة لإيحاءات القصيدة الجاهلية.
- إبراز أهمية الشعر الجاهلي في مد الساحة الأدبية بعناصر التميز والاستمرار.
- الشعر العربي الجاهلي شعر ذو تميز وتألّق يسير وفق نظام متكامل، خضع له عمالقة البيان.
- تميز الشاعر الجاهلية بتجربة شعرية عميقة صبغته بطاقتها الكامنة وعبر عنها بصديق مستعينا بأرشف لفظ وأوسع خيال وأوفق نظام.
- الشعر العربي الجاهلي يمتلك طاقة شاعرية خصبة تتميز بالفخامة.
- تم رفع الوهم القائل بعدم ترابط القصيدة العربية الجاهلية مطلقاً.
- الشعر الجاهلي مرآة واضحة لمجتمعه.
- للشاعر الجاهلي دور كبير في العناية باللغة العربية والنحو بها نحو السمو.
- الشعر الجاهلي دليل على رقي العرب أدبياً، وذلك ناتج عن صدق المشاعر وقوة الإحساس واعتدال المزاج العاطفي، مع قوة البيان وعبارة النغم.

المراجع

الأبرص، عبيد. (1414هـ/1994م). *ديوان عبيد*، شرح: أشرف أحمد عداره، ط1. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

ابن العبد، طرفة. (1423هـ/2002م). *ديوان طرفة*، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن عبدة، علقمة. (1996م). *ديوان علقمة*، اعتنى به: سعيد نسيب مكارم، ط1. بيروت، لبنان: دار صادر.

ابن فارس، أحمد. (1418هـ/1997م). *لصاحبي في فقه اللغة العربية ومسانئها وسنن العرب في كلامها*، ط1. بيروت، لبنان: المكتبة العلمية.

- كلثوم، عمرو. (1411هـ/1991م). *ديوان عمرو*، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، ط1. بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- المرزوقي، أبو علي. (1424 هـ /2003م). *شرح ديوان الحماسة لأبي تمام*، تحقيق: غريد الشيخ، ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- مصطفى، إبراهيم، والزيات، أحمد، وعبد القادر، حامد، والنجار، محمد. (د. ت). *المعجم الوسيط*. القاهرة، مصر: دار الدعوة.
- مولوي، محمد سعيد. (1390 هـ /1970م). *ديوان عنتره تحقيق ودراسة*. القاهرة، مصر: المكتب الإسلامي.
- هلال، محمد غنيمي. (1997م). *النقد الأدبي الحديث*. القاهرة، مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

The characteristics of the Pre-Islamic Poem Authenticity

Omar Abdulhadi Omar Dayan

Department of Islamic and Arabic Sciences - Yafa University College – University of Aden- Yafa City -Yemen

dayinyafi@gmail.com

Received
04/10/2025

Accepted
29/03/2026

Published
10/09/2026

Cite: Dayan, O.A. (2026). The characteristics of the Pre-Islamic Poem Authenticity. *University of Lahej Journal of Applied Sciences and Humanities*, 1(2), 52-59.

Abstract

This research aims to identify the defining characteristics of the pre-Islamic poem, which cannot be adequately determined through the analysis of a single poem alone, but rather through examining the works of multiple poets using the historical method. The main characteristics identified in this study include careful attention to the poetic prelude, organic unity among the poem's sections, sincerity of emotion and expression, simplicity of ideas and meanings, richness of meaning, expansive imagination, and elevated diction that is harmoniously integrated into the poetic context. The study reached several findings. Most notably, it demonstrates that pre-Islamic poetry possesses enduring literary value and lasting influence, refutes the misconception that the pre-Islamic poem lacks structural unity, reveals the suggestive power of its poetic language, reflects the social life of its time, and highlights its significant contribution to enriching Arabic literary heritage through its enduring qualities of excellence and continuity. The study also concludes that pre-Islamic Arabic poetry developed a distinctive poetic structure through the diverse experiences of numerous poets over a long period. As a result, it acquired artistic qualities that effectively expressed the poets' emotions and experiences, enabling it to gain lasting acceptance and appreciation among later generations. The research consists of an introduction outlining the reasons for selecting the topic, the significance of the study, its objectives, and methodology, followed by a preliminary section, seven main sections, and the study's principal findings.

Keywords: Pre-Islamic Poetry; Atlal Prelude; Poetic Characteristics.

© 2026, Dayan, O.A., licensee University of Lahej Journal of Applied Sciences and Humanities. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, transform and build upon the material, provided the original work is properly cited.

